تجربة إبداعية
موسوعة أطفال حكموا العالم

إعداد د/ عطيات أبو العنين[1]

من دواعي سروري أن أشارك في الحلقة العلمية السادسة لمعمل توثيق بحوث أدب الأطفال والتي تقام بالمكتبة المركزية لجامعة حلوان فللجامعة وللقائمين على الحلقة كل الشكر على الاهتمام بهذا الموضوع الذي يجب أن يحظي بكل الاهتمام .

وبالنسبة للعنوان الأول وهو:
أدب الأطفال في مصر القديمة وحتى العصر الحديث:

ـ والحقيقة لقد أسعدني عنوان الحلقة لأني وجدت فيه ضالتي فلقد استحوذ هذا الموضوع على اهتمامي منذ أكثر من عشر سنوات عندما بدأ تفكيري بموسوعة أطفال حكموا العالم لأقدم للناشئة قصصا واقعية تاريخية من خلال حكايات تجذب تلك السن حتى لا يصل إليهم التاريخ مشوها ولقد أأعددت ما يقرب من مائة شخصية أرجو أن أستطيع نشرها بالكامل حتى الآن أما ما تم نشره بعض الشخصيات فمثلا فلقد تناولت من الدولة القديمة .

بيبي والقزم دنج: من خلال حكايته مع قزمه الأثير إلى نفسه والذي يعرف من خلال التعامل معه أهمية الحرية لكل إنسان . وبيبي الثاني ينتمي إلى الأسرة السادسة وحكم ما يقرب من قرن من الزمان ولد ليعتلي العرش قبل أن يكمل السادسة من عمره .

رمسيس الثاني الصقر الذهبي: من خلال حكايته مع والده سيتي ووفاؤه له وتوليه الملك بعد فهو ينتمي للأسرة التاسعة عشرة ولقد حكم سبعة وستون عاما وتولى الحكم قبل أن يكمل العاشرة من عمره .

تحتمس نابليون الشرق القديم: تحتمس وجكايته مع زوجة أبيه حتشبسوت والصراع الذي دار بينهما من خلال قصة وحرب تدور مع البدو الآسيويين وقد حكم أربعة وخمسين عاما وتولى الحكم قبل أن يكمل الثانية عشرة من عمره إلا أن حتشبسوت كانت وصية عليه .

(1) مقدمة برامج بالإذاعة والتليفزيون ـ شبكة الإذاعات الإقليمية بإذاعة القاهرة الكبرى .

أحمس قاهر الهكسوس : من خلال حكاية أحمس وقصة كفاحه وتاريخ أسرته النضالي سواء والده سقنن رع او استشهاد أخيه كاموزة ووقوف الجدة تيتي شيري بالتشجيع والمساندة بعد موت والده كذلك وقوف امه إع حتب كل ذلك من خلال قصة لبطل صغير دون الثانية عشرة من عمره .

توت عنخ آمون : من خلال حكايته مع زوجته عنخس وقد تأثر بموت سمنخ كارع أخيه وهو ينتمي للأسرة الثامنة عشرة، ولقد نال توت شهرة واسعة لأنه تولى الحكم وهو لم يكمل العاشرة من عمره ولكنه مات وهو في الثامنة عشرة من عمره فجأة وقد حدث جدلا كبيرا على سبب موته .

وهناك العديد والعديد من الشخصيات في الدولة القديمة التي تناولتها الكاتبة من خلال قصص تقدم كأدب للناشئة كذلك تناولت الكاتبة شخصيات من العصر الطولوني مثل خمارويه بن أحمد بن طولون وحكايته مع أسده زريق وارتباطه به وحكمه فلقد حكم وهو لم يكمل العاشرة من عمره .

الحاكم بأمر الله من العصر الفاطمي : وغرابة تصرفاته من خلال علاقته بأخته ست الملك المستنصر والضيف الثقيل وهو ينتمي للدولة الفاطمية حكم سبع سنوات وفترة حكمه قضاها في الشدائد والوباء والغلاء والفتن التي أصابت البلاد .

الناصر محمد بن قلاوون : حكم وهو لم يبلغ الرابعة من عمره ومن خلال مطالبة الشعب باعتلائه العرش يتولى الحكم ثلاث مرات في فترة حكمه ويتعرض لمعاناة شديدة من خلال قصته مع بعض الأمراء .

أما بالنسبة للعصر الحديث فقد تم حكم الملك فاروق وهو صغير في السادسة عشرة من عمره وحكم لمدة خمسة عشر سنة بدون سنة وثلاثة أشهر هي فترة الوصاية .

الحقيقة أسعدني أن أتحدث عن موسوعتي أطفال حكموا العالم على مستوى محوري الحلقة النقاشية فلم يكن الغرض من هذه الموسوعة التي تصدر عن دار المعارف مجرد عرض شخصيات تاريخية فقط وكذلك ليست شخصيات تاريخية محلية فقط وإنما كان الهدف هو عنوان الحلقة النقاشية الذي طرحتموه اليوم في حلقتكم من أجل التواصل الثقافي بين الشعوب فعندما فكرت في هذه الفكرة كان نصب عيني هدفا أساسيا أن تصل الحقيقة للناشئة من خلال قالب شيق وتقدم لهم الحقيقة كاملة حتى ولو كانت الشخصية التي تقدم فيها بعض المسالب فعلينا أن ننشئ الجيل الجديد أن يحكم بموضوعية على كل الأمور التي يتناولها وبمقياس العصر الذي مرت به الأحداث وعلى سبيل المثال

فقد تناولت في قصة:

الإسكندر أو الإسكندر المقدوني : قصته مع أرسطو الفيلسوف وبناء مدينة الإسكندرية وحب الإسكندر للفلسفة من خلال حكايته مع أرسطو ووالده فيليب المقدوني ولقد تولى الحكم صغيرا . وأقام إمبراطورية وكسب بلاد الإغريق ونسج أسطورة تدور حول الشخصيات .

بطرس الأكبر: قيصر روسيا وحكايته مع الحكم والتعليم وأخته صوفيا الشريرة وكذبة أبريل وأصل الحكاية. وكان من أهم أهدافه إدخال الحضارة الغربية تجاه البحرين البلطي والأسود قام بإصلاحات داخلية وفتوحات وتوسعات في الجنوب من تركيا وبلاد فارس وكان يتحمل الإفراط في العمل.

الإمبراطور المغولي أكبر إمبراطور بلاد الهند: وحكايته مع الهند وفتوحاته ولقد بنى الهند الجديدة وتدور الحكاية مع ابنه همايون وصراع من أجل الحكم والتعرف على حضارة مختلفة عن حضارتنا مما يحقق لسن الناشئة التواصل الثقافي بين الشعوب والتعرف على شخصيات حكمت بلادها وحققت من خلال بلادها إمبراطوريات كبيرة امتدت عبر عقود طويلة تبين لنا ثقافات مختلفة.

كان اهتمام رواد أدب الأطفال الأوائل في العالم العربي نقل النموذج الغربي بحذافيره. إن المتأمل لمكتبة أدب الطفل في العالم العربي الآن يلحظ بونا شاسعا بين المشهود والمنشود. مشكلة النموذج هي المشكلة الرئيسية في أدب الطفل في العالم العربي اليوم. في الأدب الصهيوني للأطفال يمتزج الأدب بالتربية ، فتصبح التربية أدباً ، والأدب تربية الحل هو إيجاد نموذج يحمل قيمنا الدينية والمجتمعية الصحيحة يظهر لأدب الأطفال يخوض معركة المستقبل لماذا لا توجد شخصية من شخصياتنا المتميزة تدور عنها الأحداث لقد ارتبطت نشأة أدب الطفل في العالم العربي في المئة سنة الأخيرة التي شهدت ظهوره كفن مستقل ، بنظيره في أوربا، وهذا يعني أنه نشأ في إطار التقليد للأمم الغربية التي قطعت شوطا مهما في إبراز معالم هذا الجنس الأدبي وخصائصه النوعية ، فقد كان دافع الرواد الأوائل في العالم العربي من وراء الكتابة للطفل والترجمة إليه ، هو نقل التجربة الأوربية التي شكلت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن التالي له نموذجا نهضويا يحتذى.

غير أن هذا الإطار التاريخي لنشأة أدب الطفل أو الكتابة الأدبية للأطفال لم يكن يعني أن الرواد الأوائل في العالم العربي كان شغلهم الشاغل نقل النموذج الغربي بحذافيره، واستنساخ أدب الطفل الغربي بقضاياه وهمومه، وإنما المقصود فقط القول بأن بداية الاهتمام بالطفل والطفولة في الحقل الأدبي ارتبطت بالفكر الأوربي الذي انفتح عليه العرب والمسلمون في بداية القرن الفائت، وهكذا تمت العودة إلى التراث العربي والإسلامي للاغتراف منه واستلهامه في الكتابة للطفل ، وحتى في تلك الترجمات التي قام بها بعض الرواد للقصص والحكايات والأشعار الأوربية المكتوبة للأطفال، مثلما فعل أحمد شوقي مع " خرافات " لافونتين الفرنسي، بقي التراث الإسلامي الفني حاضرا في تلك التجارب، سواء من حيث المضامين والأهداف، أو من حيث الأساليب الأدبية العربية، إلى الحد الذي يختفي فيه الفاصل بين النص المترجم والنص الثاني، كما يتضح حين نقلب "الشوقيات". ويمكنني القول : إن تجربة الرعيل الأول من الكتاب والشعراء العرب في التأليف للأطفال كانت تجربة أصيلة ، ولعل مرد ذلك- من وجهة نظري على الأقل - إلى أن هؤلاء كان حافزهم التربية والتعليم وتكوين جيل متشبع

بالقيم والمثل الكبرى للأمة، في فترة من الزمن طبعتها المواجهة مع الفكر الغربي الوافد، وهاجس التأصيل الثقافي والحضاري، فقد كان جل من كتبوا للأطفال في تلك الفترة ووضعوا اللبنات الأولية لأدب الطفل العربي هم من رجالات الحركات الوطنية التي واجهت الاستعمار، أو من حاملي مشعل النهضة في العالم العربي. ولم يكن الأدب العربي خاصة، والثقافة العربية عامة ، قد تلوثا بمظاهر الغزو الثقافي ، تحضرني هنا أسماء أحمد شوقي وعلال الفاسي وكامل الكيلاني ومحمد سعيد العريان.

لقد وضع هؤلاء وغيرهم من الجيل الأول قصصا وأشعارا للأطفال توخوا فيها التوجيه السليم والوعظ والإرشاد والتقويم والتزكية والإصلاح، وسعوا إلى غرس حب لغة الضاد في نفوس الأطفال، وصقل مواهبهم اللغوية. ولا يقلل التطور الذي حدث في أدب الطفل في المراحل اللاحقة من إنجازاتهم التي كان لها فضل التأسيس.

من النشأة إلى التغرب لقد كانت هذه النظرة السريعة إلى البدايات الأولى لأدب الطفل في العالم العربي ضرورية للتساؤل: هل استطاع أدب الأطفال العرب، أو الأدب العربي المكتوب للطفل، أن يستوعب هذه التجربة السابقة ويبني عليها؟

لاشك أن القطيعة التي حدثت بين الرواد الأوائل والمبدعين اللاحقين في الكتابة للطفل قد أثرت كثيرا على وضعية أدب الطفل في العالم العربي . فالتجارب التي جاءت فيما بعد لم تحتفظ بنفس الفلسفة التربوية والاجتماعية التي حكمت الرعيل الأول، وأخذت تقتبس من الغرب الرأسمالي أو الشرق الشيوعي نماذجه الأدبية الخاصة بالطفل، بحسب التوجهات الإيديولوجية والفكرية التي سادت في العالم العربي خلال الستينيات والسبعينيات والثمانينيات، فبدأت مرحلة التغريب والغزو الثقافي في أدب الأطفال، بمثل ما كان عليه الحال في المجالات الأخرى من أدب وفكر وفن.

لقد تمت التضحية بالطفل العربي والمسلم لصالح الإيديولوجيات الشرقية والغربية التي حملت فلسفات تربوية واجتماعية متصارعة فيما بينها ، ومتناقضة في مجموعها مع هوية الطفل العربي الذي كان غائبا في حقيقة الأمر. فمن الواضح أن النماذج الغربية والشرقية لم تستجب لحاجياته ومتطلباته النفسية والروحية والعقلية، الأمر الذي أحدث شرخا كبيرا في هويته، زاده بلة التطور الذي هم صناعة ثقافة الطفل في الغرب التي اكتسحت البيوت في العالم العربي بفضل انتشار التلفزيون والإعلام السمعي البصري.

إن الفرق بين تجربة الرعيل الأول والتجربة اللاحقة لها يظهر بالأساس في أن الأولى كانت واعية بنفسها، ولها منطلقات محددة وغايات مرسومة، بصرف النظر عما إذا كانت فشلت أو توفقت في التواصل مع المستويات العمرية والمقدرات المختلفة للأطفال العرب، بينما التجربة الثانية انطلقت من غير بلورة الأسس العلمية، التربوية والثقافية، لأدب الطفل، فسقطت في النقل الحرفي لما يكتب في الغرب للطفل غير المسلم ، وهو ما وضع أدب الطفل في العالم العربي في محنة حقيقية.

إن التاريخ العربي والإسلامي زاخر بتراث قصصي وشعري هائل من شأنه أن يغني أدب الأطفال ويؤسس لمنظومة تربوية متماسكة، فإلى جانب التراث المكتوب، الغني بما يحويه، هناك تراث شفاهي تناقلته الأجيال عن بعضها البعض، جزء كبير منه له جذور عميقة في الوعي الديني للأمة، عبرت به الأجيال الثقافية بشكل تلقائي عن هموم حياتها اليومية ومشاعرها وقضاياها ، غير أن هذا التراث الكبير لم يتحول إلى مادة يمكن استثمارها وتوظيفها في أدب الطفل المسلم، إلا في حالات قليلة لبعض الكتاب والشعراء الإسلاميين المعاصرين، وهي حالات لم تشكل القاعدة بل الاستثناء، وسط ركام كبير من الكتابات المتغربة ذات الأهداف الإيديولوجية المائلة، أو المتسرعة ذات الغايات التجارية، وبين هذين القطبين، ظلت مساحة الاجتهاد المؤصل محدودة ومزاحمة، وتعطل مشروع وضع أدب مستقل للطفل المسلم في العالم العربي له خصوصياته وأسئلته وقضاياه، بسبب القطيعة بين التجارب المختلفة، وعدم اكتمال النمو .

أدب الطفل والدور المفقود:

إن المتأمل فيما توفره مكتبة أدب الطفل في العالم العربي يلحظ بونا شاسعا بين المشهود والمنشود، لقد سجلت الإنتاجيات في مجال أدب الأطفال العرب تقدما ملحوظا خلال العشرين سنة الأخيرة من حيث الكم، وهذا عائد إلى الأهمية التي أصبح يحظى بها الطفل عموما في العالم العربي، وانتشار التمدرس وانحسار الأمية لدى الجيلين الأخيرين مقارنة مع الأجيال السابقة، وغيرها من الأسباب التي هي موضوع آخر، ولكن هذا التقدم في المستوى الكمي لم يرافقه تقدم في المستوى النوعي لأدب الطفل .

فأدب الطفل في العالم العربي ظل حتى اليوم عالة على ما تقدمه المائدة الغربية، ترجمة أو استلهاما . و الاعتقاد السائد هو أن التقدم الذي حققه أدب الطفل في الغرب يبرر النقل عنه أو استلهام تقنياته، بدون النظر إلى حاجات الطفل المسلم والمحيط الثقافي والرمزي الذي يتحرك فيه ، ومن ثم تصبح عملية النقل خطرا على الطفل المسلم من حيث إنها تكرس لديه الشعور بالتبعية من ناحية، وتركز لديه عادة التفكير من داخل ثقافة الطفل الغربي ونمط عيشه من ناحية ثانية، وتغرس فيه الشعور بالعجز، والاعتقاد السلبي بعدم إمكان الإبداع إلا من داخل ثقافة الغرب من ناحية ثالثة ، ولا ينبغي أن يغيب عنا أن الأدب بالنسبة للطفل يختلف عنه بالنسبة للكبار، فهو في حالة الطفل تنشئة من داخل الخطاب الأدبي، بكل ما تحمله كلمة التنشئة من المعنى .

إن مشكلة النموذج هي المشكلة الرئيسية في أدب الطفل في العالم العربي اليوم :
ما النموذج الحضاري في هذا الأدب، والذي يراد غرسه في نفسية الطفل؟
من الأبطال الحقيقيون الذين يؤمن بهم الطفل ويسعى إلى خلق شخصيته من خلالهم؟
ما المساحة التي يشغلها التاريخ في أدب الطفل المسلم؟

ما القيم " الدينية الثابتة، لا تلك القيم الاجتماعية المتحولة، المهيمنة في نصوص هذا الأدب ؟

مثل هذه الأسئلة من شأنها أن تلقي الضوء على حقيقة وضعية أدب الطفل في العالم العربي، فبقدر القرب أو البعد منها يمكننا تشخيص هذه الوضعية ، ويكفي القول هنا إن قيم البطولة العربية المسلمة تغيب في جل منجزات أدب الطفل العربي، لحساب قيم البطولة المستوردة من الغرب، ولم يستطع هذا الأدب أن يخلق أبطال الطفل المسلم الحقيقيين، وظل مرتبطا بالشخصيات البطولية التي ابتدعها رواد أدب الطفل في الغرب (تان تان ، توم أند جيري، ميكي ماوس . . .) ، وهي شخصيات تبقى منقطعة الصلة بمحيط الطفل المسلم أو الطفل العربي وتاريخه . حتى عندما قمنا بعمل شخصية بكار لم تأتي بنفس مستوى الشخصيات بل تجدها شخصية متخلفة وساذجة وكأننا لا نعي ما يحدث حولنا وشخصية دياسطي بالرغم من تناول موضوعات هامة إلا أنها من وجهة نظر الطفل مباشر وغير محبب لهم . .

إن التطور الذي شهده أدب الطفل في الغرب لم يكن منقطعا عن الفلسفة التربوية الغربية العلمانية والمادية التي أنجبته، فأدب الطفل في الغرب الرأسمالي يسير في منحنى علماني، الهدف منه تنشئة الطفل على قيم الاستقلالية الثابتة في تفكيره وحركته عن الأسرة والكنيسة، والثورة على القيم المحافظة، واعتبار الغاية الأساس هي تفجير طاقاته بصرف النظر عن أي حدود دينية أو قيود أخلاقية، إذا صح تعبير القيود في الأخلاق، ومن هنا سيادة قيمة الاستهلاك والحرية الفردية المطلقة والتحرر الاجتماعي) العلاقة بين الذكر والأنثى مثلا) وإذا نحن تأملنا في الأدب الصهيوني المخصص للأطفال، نجده لا ينفصل عن الجذور الدينية والفكرية التي أسست للمشروع الصهيوني، ونجد فيه المرآة العاكسة للرؤية التربوية الصهيونية، من حيث تنشئة الطفل على الالتصاق بأرض الميعاد التي يعتبرونها أرض الأجداد، والالتحام بالجماعة اليهودية كوسيلة للخلاص، وكراهية الأغيار والعنصرية اتجاه غير اليهودي، إلى الحد الذي يختلط فيه الأدب بالتربية، فتصبح التربية أدبا، والأدب تربية .
من هنا يتضح لنا أن مشكلة أدب الطفل المسلم هي مشكلة الخصوصية التي يفتقدها في علاقته بالنماذج الأدبية الغربية السائدة، فالكثير مما يكتب للأطفال العرب تغلب عليه القيم المستوردة والشخصيات التاريخية والرمزية الأجنبية، دون تدقيق فيما يتم تلقينه للطفل العربي أو مما قد يكون له أثر سلبي على وعيه بمحيطه وتاريخه وحضارته، فقد ساد الاعتقاد لدينا بأن الكتابة للطفل الهدف منها الترويح والتسلية ومساعدة الطفل على تربية الخيال الإبداعي، بينما وضعت مهمة التربية والتنشئة النفسية والاجتماعية السليمة وخزن القيم الباطنية جانبا، بدعوى أن مرحلة الطفولة تتمحور حول قضية واحدة فقط هي اللعب والترويح .

إن التحدي الكبير المطروح على المجتمعات العربية والإسلامية في عصر العولمة والانترنيت هو تحد متعدد المستويات، لكن أدب الطفل يبقى أهم هذه المستويات، لكي يمكننا التصدي للثقافة

المسطحة وحضارة التسلية القاتلة والاستهلاك المميت التي تقترحها العولمة الرأسمالية الغربية على العالم .ولا يمكن النهوض بهذا التحدي دون خلق نموذج إسلامي حي لأدب الأطفال يخوض معركة المستقبل في الحاضر المشهود، يجتمع عليه خبراء التربية والعلم الشرعي وعلوم النفس والاجتماع واللغة والفنون المختلفة ورجال الإعلام والكتاب والمبدعون والشعراء، فالغرب لم يتفوق علينا باستجماعه لكل الجهود في هذا الحقل ، وخلق أدب للصغار أصبح يبهر أطفالنا ويغزو قنواتنا ومكتباتنا وبيوتنا، حتى أصبحنا نعيش وضعية الاختراق الثقافي بالمعنى الواسع للكلمة، وهذا أكبر خطر على أطفالنا، لأن المغلوب مولع بتقليد الغالب في كل شيء، كما قال العلامة عبد الرحمان بن خلدون، والأطفال هم الحلقة الأضعف في المجتمع و أكثر المعرضين للتقليد.

السؤال الذي يجب أن نوجهه لأنفسنا : **هل قدمنا نماذج وبطولات وشخصيات من تاريخنا العريق والطويل عبر آلاف السنيين للطفل ؟**

لقد قدم للطفل شخصيات كثيرة عبر قرنين من الزمان تناولنا خلالها الحكايات المستلهمة من الأساطير والموروث الشعبي وما إلى ذلك من المصادر ولكن دائما نقدم للطفل شخصية ذات اتجاه واحد بمعنى أنها إما شخصية شريرة أو شخصية طيبة وبالطبع يكون الخير مقابل الشر ولكن هل تناولنا الشخصية الإنسانية بنواقصها ونوازعها فالإنسان يحمل بين جنباته الخير والشر ونحن نعلم الأبناء أن يتعلموا التفكير الناقد ومن البديهي أن يحكم على كل شيء باتجاهيه لا بد أن نقدم للطفل نماذج وبطولات عظيمة ولكنها ربما تخطيء وعلينا أن نعلمه كيف يحكم على هذا الشخص برأيه هو . . ومن منظوره هو . . نحن نقدم له الشخصيات ونحن قد صادرنا بحكمنا عليها ولكن هناك شخصيات خلافية نبعد عنها دائما وأيضا دائما نفلتر أعمالنا وسيرنا التي نقدمها للطفل من خلال شخصية تبدو نقية تماما وبعيدة عن الخطأ.

لم يعد الأطفال يقتنعون بهذا وبأن الوالدين قد حققا كل التفوق ولم يرسبا في أي شيء ومن هنا كانت نيتي أن أقدم لأطفالنا شخصيات من تاريخنا القديم والحديث ولكن ربما تكون محل خلاف . . ونتركه ليحكم ويكون وجهة نظره هو لا وجهة نظر من حوله .

مثال شخصية الحاكم بأمر الله من العصر الفاطمي، تخشى دور النشر من تقديم ذلك للطفل وتبعد عن كل الأجزاء من سيرته التي يعتقدون أنها تضر به . .

ونحن مع ذلك نقدم للطفل الكمبيوتر وهو يحمل بين طياته الخير والشر كيف يستعمله وكيف يستفيد منه . . هذا الذي تظهر فيها الشخصية بأي نقيصة ولكن علينا أن نعرض التاريخ بشكل حقيقي وغير مزور. نحن نقدم للطفل الكمبيوتر وهو يحمل بين طياته الخير والشر كيف يصل لكل منهما ويتعامل معه بشكل صحيح .

هذه هي حجتنا للحكم على العلاقة أن أقدم له الشخصية بحلوها ومرها وأترك له الحكم في النهاية طبقا لما يفنده من أفانيد وأسانيد تاريخية وواقعية من خلال عصره. وهذا هو ما يحافظ على الهوية.

فالهوية الثقافية تتضمن القيم أو المعايير القياسية التي تتميّز بها جماعة أو مجتمع عن مجتمع آخر وجماعة أخرى مختلفة، والتي تميّز بها الجماعة بين ما هو جيّد وما هو سيء، بين ما هو مرغوب وما هو غير مرغوب فيه، في هذا الإطار تتحدد الهوية بالإجابة عن السؤال: مَنْ نحن؟ ما خصائصنا؟ بماذا تتميّز شخصيتنا؟ وبماذا نختلف عن الآخرين؟ ما العوامل المشتركة بيننا؟ ما الثوابت وما المتغيّرات في تكوين شخصيتنا؟ ما التغيّرات التي يمكن أن تحدث أو التي يمكن إحداثها دون أن تتشوّش هويتنا؟

من هذا الفهم فإن المحافظة على الهوية الجماعية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمطلب الاستقلالية الثقافية، فالثقافة والهوية مفهومان يحيلان إلى الواقع نفسه، غالباً ما تحيل هذه الأسئلة عن الهوية الثقافية المستقلة والتي تميّزنا عن الآخرين على التراث باعتباره هو الذي يشكل شخصيتنا الحضارية وهويتنا الثقافية. ولكن ما التراث؟ لقد لاحظنا عبر أكثر من قرن أن فهمنا كعرب لتراثنا ليس واحداً وليس ثابتاً، بل ظل دوماً شأناً متعلقاً بانتماءاتنا واتجاهاتنا الإيديولوجية بالدرجة الأولى، وبالتالي ظل مفهوم الهوية ملتبساً هو الآخر، ومتعدداً بتعدد مصالحنا وأيديولوجياتنا.

نفهم الهوية على أنها كيان تاريخي، وبالتالي خاضع للتغيّر والتبدّل والتطوّر، ولا يمكن فهم الهوية خارج التاريخ، ولذلك نلاحظ كيف ارتبط مفهوم الهوية في الفكر العربي الحديث بجملة من المواقف والتصوّرات المتعلقة بالتراث والحداثة والتراث والمعاصرة والأصالة والمعاصرة والشخصية الحضارية والذات العربية والعقلية العربية، هذه المواقف التي اتصلت بدورها بالمواقف من التقدّم والتخلف والتأخر والمواقف من الآخر ومن الانتصارات والهزائم والأزمات. وتغيّر مفهوم الهوية ومضامينها باختلاف مواقفنا من هذه العلاقات.

ولكن مهما كان الأمر فإن الهوية لا تعني الانغلاق على الذات أو على التراث والثبات وعدم التغيّر والتطوّر مما لا يقود إلا إلى التعفن والاندثار والموت، فالهوية ليست كياناً دائماً وثابتاً لا يحول ولا يزول، نشأ هكذا دفعة واحدة وإلى الأبد، استلمناه من أسلافنا دون تغيير ونسلمه بأمانة لأخلاقنا دون أن نتصرّف فيه .وحتى لو أردنا ذلك فإننا لن نستطيع، لأن التغيير حادث لا محالة، وهو يحدث رغماً عنا، ومن الأفضل أن نعرف كيف نتعامل مع التغيير من أن يفرض علينا ونحن عنه غافلون.

لذلك فإن تعزيز الهوية بنظرنا يعني القدرة على الاستمرار والتجدد الدائم والحوار النقدي الايجابي مع المتغيّرات الجديدة ومع الثقافات الأخرى، لأن الهوية بغير ذلك مجرّد ذكرى، ولأن الثقافة التي لا تحاور وتتجدد وتتغيّر هي ثقافة خالية من الإبداع، وميتة لا محالة، ولا نريد لثقافتنا أن تكون

كذلك. وهي لم تكن كذلك عند صعود الحضارة العربية الإسلامية في القرون الثلاثة الأولى حين حاورت دون خوف على الهوية الحضارات السابقة والمجاورة لها فأنتجت النزعة العقلانية في الفكر الديني والمنهج العقلاني في التفكير الرياضي والتجريب كنمط من أنماط البرهان في البحث. ولم تشكل الحضارة العربية، واقعياً، في أي مرحلة من تاريخها نظاماً ثقافياً مغلقا بل كانت منفتحة على الحضارات والثقافات الأخرى، حتى حين دخل التاريخ العربي في ما يسمى عصر الانحطاط.

هنا يضيف مفهوم الهوية الثقافية التباساً آخر إلى صلة الخصوصية بالكونية حين تجري الدعوة إلى الانغلاق على الماضي ورفض التجديد، وإثارة الخوف من أن المزيد من التغيير سوف يؤدي في النهاية إلى نسيان ماضينا وتراثنا والقضاء على أصالتنا وخصوصيتنا وهويتنا الثقافية. وكأن على العرب لكي يحافظوا على تراثهم وخصوصيتهم وهويتهم وأمنهم الثقافي وأصالتهم أن يحاربوا التجديد. مع أن الهوية الثقافية العربية ستتألق وتتعزز بمقدار قدرتها على التجدد مع الحاجات الإنسانية المعاصرة ومساهمتها الفعالة في تجدد العالم.

كثيراً ما نسمع شكوى الآباء والمعلمين من أنهم لا يجدون لأطفالهم كتبًا بالعربية تضاهي تلك المتوفرة بالإنجليزية للطفل الغربي أو قرينه الناطق بالإنجليزية. وهذه الشكوى تعكس واقعًا ندركه آسفين متحسرين، وهو تقدم صناعة الكتب والأدب الموجه للطفل في العالم الغربي بمراحل عنها في عالمنا العربي. . فما سبب هذا التأخر؟ وهل اللوم يقع في ذلك على أدبائنا أم على مؤسساتنا الثقافية أم علينا نحن؟ وهل الوضع مازال مستمرًا كما كان عليه قبل عدة عقود؟

إذا عرضنا لبدايات أدب الطفل في العالم العربي زمنيًا نجدها أتت متأخرة عن الأدب الإنجليزي، فحسب ما يتفق عليه غالبية مؤرخي الأدب كانت بداية أدب الطفل في بريطانيا في منتصف القرن الثامن عشر عندما أصدر جون نيوبري أول كتاب ألف خصيصًا للأطفال عام 1744. أما بداية الأدب الحديث الذي يعطي مساحة أكبر للخيال فقد أتت بعد منتصف القرن التاسع عشر مع صدور روائع هذا الأدب وهي «أليس في بلاد العجائب»، «أطفال الماء» «وعلى صهوة ريح الشمال»، وإن كان فريق آخر يرجع تلك البداية لصدور النسخة المترجمة للإنجليزية من قصص عجيبة للأطفال للكاتب الدانمركي، هانز كريستيان آندرسن، وبالمقارنة فإن أول كتاب قدم للطفل العربي جاء على يد رفاعة الطهطاوي الذي ترجم قصة «عقلة الإصبع» عن الإنجليزية ليقدم لأطفال العرب كتابًا مخصصًا لهم يستمتعون بقراءته وقد كتب أدباء ومربون في مصر وسوريا والعراق للطفل منذ بداية القرن العشرين مما خلق مناخًا مناسبًا لنهوض أدب طفل اتضحت معالمه في الستينيات من القرن العشرين. وبهذا نجد ما يقارب قرنًا من الزمان بين بداية أدب الطفل الغربي والعربي. ولا شك أن هذه البداية المتأخرة تفسر من ناحية تخلفنا عن مسايرة أدب العالم المتقدم وإن كانت ليست العامل الأوحد فيه.

الكتابة للأطفال:

أدب الأطفال هو أدب قديم حديث. حيث كانت الأمهات والجدات يقصصن الأساطير والحكايات الشعبية للأطفال قبل النوم ، وصحيح أن الأمهات والجدات كنّ يغنين التهاليل والقصائد الشعبية على أسرة أطفالهن . فكل ذلك جزء لا يتجزأ من عمل الكبار . ضف إلى ذلك اتجاه هذا الأدب ونوعه كأدب مسموع وليس كأدب مقروء . أما الاهتمام النوعي بأدب الأطفال في الوسط العربي فقد بدأ في بداية القرن ولكن ليس بشكل مكثف أو منظم أو ممأسس، بل هو ثمرة اجتهاد على مستوى الأفراد والأشخاص . هكذا بدأ الأستاذ المعروف رفاعة الطهطاوي : " أن أول من قدم كتابا للأطفال العرب هو رفاعة الطهطاوي وذلك حينما رأى أن أطفال أوروبا ينعمون بقراءة انواع مختلفة من الكتب التي كتبت خصيصا لهم فقام بترجمة كتاب انجليزي الى اللغة العربية ، وهو عن مجموعة من الحكايات ، وكان اسمه " عقلة الأصبع " . **(مفتاح محمد ذياب ، مقدمة في ثقافة وأدب الأطفال ، ص21)**

ويسرد الكاتب تاريخ الكتابة للأطفال في العالم العربي ، مرورا بالشاعر احمد شوقي وكامل كيلاني وعطية الإبراشي وعادل غضبان ، ويؤكد دعمه لعدم اهتمام العالم في الطفل وأدبه، ويقول : " ولكن بعض الطلائعيين في هذا المضمار لم يأبه بنظرة المجتمع إلى الأطفال وأدبهم ، تلك النظرة التي كانت نظرة استخفاف واستهانة ، بل استمر هذا البعض في العطاء والكتابة والاهتمام حتى وفاته ، مثل كامل كيلاني (1897 – 1959) الذي يعتبره أدباء الأطفال اليوم الأب الشرعي لأدب الأطفال في اللغة العربية " . **(نفس المصدر ، ص33)**

إذن أن أولئك الأدباء والمربين وضعوا حجر الأساس لأدب الأطفال العربي الحديث . ثم أن اهتمام أدباء وشعراء الكبار بالكتابة للأطفال مثل احمد شوقي وزكريا تامر وغيرهم لم يكن كافيا لنقول أن لدينا تقاليد وتجربة في الكتابة للأطفال.

نستطيع القول فقط أن تلك المحاولات الفردية في ذلك الوقت قد تكون أوجدت مناخا مناسبا في الخمسينات والستينات لزيادة الوعي التربوي والاهتمام بضرورة رعاية أدب الأطفال. أما العملية الإحصائية لهذا الموضوع فهي تدل على انه : " ومهما بلغ عدد الكتب التي أصدرت خلال السنوات الماضية ، فهي قليلة جداً إذا قورنت بنسبة عدد الأطفال العرب القادرين على القراءة والذي بلغ عام 1970 حوالي 32 مليون طفل دون سن الخامسة عشرة ، وهم بحاجة إلى ما لا يقل عن 1500 كتاب كل سنة باثنين وثلاثين نسخة " **(هادي نعمان الهيتي ، أدب الأطفال ، ص288)** . قد تكون هذه الإحصائية صحيحة لفترة السبعينات ويظهر أنها صحيحة أيضا لفترتنا اليوم . فمع أن أحدا لا يشك في القفزات الهائلة التي مر بها أدب الأطفال من الناحيتين الكمية والنوعية في العقدين الأخيرين فإننا نشك في أن تكون هذه القفزات ملأت النقص الكبير في هذا المجال .

هذا من جهة ، أما ما نريد أن نطرحه هنا فهو ضرورة الفصل بين النقاش الأكاديمي حول ماهية أدب الأطفال ، نظريته ، مقوماته وأهميته الفنية والتربوية ، وبين ضرورة وجوده وتشجيع الأدباء المبدعين في هذا المجال على ضرورة الكتابة وعلى ضرورة رعاية كتاباتهم وطباعتها ونشرها . ومن جهة أخرى يجب أن ننوه هنا إلى أن التمييز بين الدراسات الأكاديمية وبين الكتابة الإبداعية هي أمر ضروري . ولا أظن أن أحدا يشكك في أهمية أدب الأطفال كحق أساسي للأطفال علينا ، نحن المهتمين بهذا المجال : " أدب الأطفال يتيح الفرصة أمام الأطفال لتحقيق الثقة بالنفس وروح المخاطرة في مواصلة البحث والكشف وحب الاستطلاع ، والدافع للانجاز الذي يدفع للمخاطرة العلمية المحسوبة من اجل الاكتشاف والتحرر من الأساليب المعتادة للتفكير والميل الى البحث في الاتجاهات الجديدة . ؟ " **(د. حسن شحاتة ، أدب الطفل العربي ، ص 12)**

وأخيرا نريد أن نؤكد هنا ، قبل النقاش في التساؤلات المطروحة ، حقيقة إننا من ناحية أولى نتأثر بما يجري على الساحة الغربية في موضوع أدب الأطفال وخاصة في دراسات هذا الموضوع . أما من الناحية الثانية فإننا نؤكد ميزات مجتمعنا الخاصة والتي تختلف عما يجري في أدب الأطفال العربي : " أن ما بين أيدينا من دراسات لموضوع نمو الأطفال هو ثمرة بحوث العلماء الأجانب في بيئات غير بيئاتنا . وعلى أطفال يختلفون عن أطفالنا اختلافا كبيرا في نواح منها : أنواع البيئات الاجتماعية وألوان التراث الثقافي الذي يكتسبه الأفراد من مجتمع له تقاليده وعاداته ودياناته واتجاهاته . . "

(أحمد نجيب : أدب الأطفال – علم وفن 1991 . ص38)

لا مانع إذن أن نستمر بترجمة الآداب العالمية ، مثلما فعل رواد أدب الأطفال العربي، ولا مانع أن نستعمل الأدوات العلمية ونستغلها بغية الاستفادة منها في إثراء أدب الأطفال ـ النصوص والدراسات .

إن مرحلة الطفولة هي مرحلة مختلفة نوعيا عن المراحل المتأخرة . فهي لا زالت في طور التكوين والنمو – وهذا ما يميز إحساسهم ، تفكيرهم ، لغتهم ومهارتهم : " ان طبائع الأطفال تختلف عن طبائع الكبار . فمراحل النمو التي يمر بها طفل لها دراجات مختلفة في كل مرحلة . وذلك يتصل بالنمو اللغوي ، العلمي ، العاطفي والفكري . ضف إلى ذالك المستويات البيئية ، الاجتماعية والاقتصادية . " **(احمد نجيب – علم وفن 1991)** . ولا يعقل بطبيعة الحال إلا يتميز أدب الأطفال عن أدب الكبار ولو لهذه الأسباب الطبيعية والنفسية والعقلية . فلكل مرحلة من مراحل النمو ما يناسبها عقليا ، جسميا ، لغويا وعاطفيا . ولا يمكن الخلط العشوائي في مثل هذه الأمور التي من شأنها ان تؤثر على التقاليد القرائية للطفل . وقد صنف " بياجيه " وتلامذته هذه المراحل حسب مراحل أساسية بهذا الشكل :

1 . مرحلة الطفولة المبكرة (3ـ6) سنوات . 2 . مرحلة الطفولة المتوسطة (6 ـ 8) سنوات .
3 . مرحلة الطفولة المتأخرة (9 – 12) سنة . 4 . مرحلة المثالية او الرومانسية (12 – 15) سنة .

وتتميز كل مرحلة بطبائع خاصة في كثير من الأحيان باختلاف الأفراد والبيئات والمجتمعات . فالمرحلة الأولى يسميها البعض مرحلة الواقعية والخيال المحدود ، والتي لا تزال فيها القيم غير واضحة بالنسبة للطفل . فتلاؤمها القصص التي تأخذ فيها الحيوانات والطيور وحتى الجماد دوراً فعالا . إنها مرحلة التفكير الحسّي والصوري .

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الخيال المتحرر حيث تزداد فيها لدى الأطفال الخبرات الذاتية في المحيط الذي يعيشون فيه . ولهذا تلاؤمها قصص الخرافات والقصص الشعبية ، ولا تزال الحيوانات والجماد تأخذ فيها دوراً رئيسيا .

أما مرحلة الطفولة المتأخرة فتتميز بالرغبة في المغامرة والتجربة الذاتية . وهنا تأخذ الجماعة دور الفرد وللعلاقات الجماعية دور فعال فيها . إذن تلاؤمها قصص الصداقة الوفاء ، الخيانة والحسد ، المشاجرات ، المخاطرة والبطولة .

أما من ناحية اللغة فلا مجال هنا في تحليل أهميتها في مراحل نمو الطفل (**راجع في هذا المجال بحثا مفصلا للدكتورة ليلى احمد كرم الدين : اللغة عند الطفل ، معهد الدراسات العليا للطفولة ، جامعة عين شمس 1993**) . إذن ، أن هذا التمييز العقلي والعاطفي كاف لان نفصل ونميز أدب الأطفال عن أدب الكبار .